**المحاضرة الثامنة:**

# مدخل إلى الفنون النثرية

تمهيد.

1. مراحل تطور النثر العربي.

أ. مرحلة البدايات.

ب. مرحلة الانتقال.

جـ. مرحلة الإزدهار.

## المحاضرة الثامنة:

## مدخل إلى الفنون النثرية

**تمهيد:** لم يكن النثر العربي قبيل العصر الحديث أحسن حالا من الشّعر، فقد جمدت فنونه وضاقت أغراضه، وضعف أسلوبه ودار معظمه حول الرسائل والمقامات بأسلوب كثرت فيه الزخارف اللّفظية والمحسّنات البديعية، وانسابت العامية إلى الفصحى.

وعندما بدأت النهضة الحديثة نتيجة اتصال العرب بحضارة الغرب واحيائهم التراث العربي القديم -كما رأينا في المحاضرة الأولى- أخذ النثر يتقدم بخطى ثابتة شيئا فشيئا، وكانت استجابته للتطور أسرع من الشّعر، وذلك لاهتمام رواد النهضة بالنثر أكثر من الشعر. فقد نقلت إلى اللّغة العربية، علوم الطب والهندسة والفنون الحربية مترجمة بأسلوب النثر العلمي في أوائل أيّام النهضة. في الشام كان المبشرون المسيحيون مهتمين بنقل كتبهم الدينية إلى اللّغة العربية مركزّين جهودهم حول النثر الأدبي، لأنّه يغذي العاطفة ويلائم أهداف وخطط الحركة التبشيرية، بينما الشعر فن رفيع تسعى إليه الأمم، إذا استوفت مطالبها الأولية من وسائل التعبير عن الحياة العادية.

غير أنّ تيار النهضة الزاحف من أوروبا والمتأثر بإشعاع الحضارة العربية الأصيلة في عصورها الزاهرة، لم يقتصر على ناحية واحدة، فاقتحم كلّ ميدان، ونما الشّعر وازدهر النثر وأخذ صورا تختلف عمّا كانت عليه في عصر الضعف، إذ لا يعقل أن يتطور الشعر ولا يتطور النثر، فهما صنوان متلازمان لبعضهما البعض.

**1. م ارحل تطور النثر العربي:** لإنّ المتفحّص لمسيرة الفنون النثرية في العصر الحديث، يجد أنّها مرّت بثلاث مراحل يمكن حصرها فيما يأتي:

**أ. مرحلة البدايات:** لقد حاول أدباء هذه المرحلة أن يعيدوا للنثر قوّته ، بعد أن أوشك أن يصل قبيل عصر النهضة إلى مرحلة الاحتضار فقد أصيب بوهن وسقم شديدين بالغين وبعقم خطير مستفحل في قالبه ومادته. وهذه المرحلة بدأت بالاحتكاك بالحضارة الغربية وكان هذا الاحتكاك من أهم عوامل التطور، إذ بدأ الأدب يتخلص من الموضوعات التقليدية ويهتم بالحياة الجديدة، ويعبّر بالجملة البسيطة الخالية من التصّنع، ولا تخلو كتابات هذه

المرحلة من بعض مظاهر الضعف وورود الألفاظ الدخيلة على اللّغة العربية، وكذا عدم الاهتمام بالصورة وأهم أمثلة الجبرتي(*) وكتابه "عجائب الآثار" الذي عدّ من أهم المراجع في تاريخ مصر الحديث، وقد سمّاه بعض الدّارسين بـ"تاريخ الجبرتي" لما فيه من تسجيل دقيق وموضوعي لحملة نابليون بونابرت على مصر. والطهطاوي(**) في كتابه "تلخيص الإبريز في تلخيص باريز". وقد كان لاستفادة هذا الأخير -الطهطاوي- من بعثة علمية إلى فرنسا واتقانه الفرنسية واطلّاعه على الكثير من الأدب والفكر اليونانيين بالإضافة إلى قراءة راسين وفولتير وروسو ومنتسكيو، كان لهذه الاستفادة أثر بارزا على فكر الطهطاوي ومؤلفاته، فقد قام بترجمة وتأليف عدد من الكتب عرض فيها أفكاره الجديدة ونظرته إلى الحياة من منظور غربي، يهدف إلى تغيير الواقع بما يتفق مع حاجات العصر، إذ يؤكد في أكثر من موقف عدم تعارض بين الموروث العربي والمدنية الحديثة ويوفق بين الدين والحضارة، وعليه فهو يعدّ نموذجا لفكرة النهضة الذي ساد الحياة العربية الحديثة.

كما برزت في هذه المرحلة بعض الكتابات الجادة، سواء من حيث طرح قضايا الراهن أو الشكل الذي قدّمت فيه ونذكر على سبيل المثال: جهود جمال الدين الأفغاني(***)، الذي حطّ عصا الترحال في مصر، وراح يعبّ من علومها متأملا حال الأمّة العربية والإسلامية وما تعيشه من تخلف، فبدأ في كتابة المقالات التنويرية، من أجل بعث الوعي القومي المؤسس على رؤية استشرافية للمستقبل الأفضل، ولعلّ صدق تجربته تعكس مؤلفاته التي منها "العروة الوثقى" وبعض تلامذته الذين أكملوا مسيرته ومنهم محمد عبده رائد النثر المعتدل.

ونذكر أيضا في هذه المرحلة خليل اليازجي(****) الذي بدأ مسيرته العلمية ببيروت ثم أكملها وغذّاها في مصر، أين تفتحت له أبواب العلوم والمعارف، فأصدر أعداد من مجلة

---

(*) الجبرتي أديب مصري (ولد عام 1753 وتوفي سنة 1822): عبد الرحمان بن حسن برهان الدين الجبرتي مؤرخ مصري عاصر الحملة الفرنسية على مصر، ووصف تلك الفترة بالتفضيل، وكتب كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار (تاريخ الجبرتي).

(**) الطهطاوي: هو رفاعة رافع الطهطاوي، ولد بطهطا بمصر عام 1811، ويعدّ من قادة النهضة العلمية في مصر، في عهد محمد علي باشا، له مؤلفان "تلخيص الإبريز في تلخيص باريز" و"مناهج الألباب المصري في مناهج الآداب العصرية"، توفي سنة 1873.

(***) جمال الدين الأفغاني بن السيد صفتر الحسيني الأسد آيادي الأفغاني، ولد عام 1838 وكان كثير الترحال في طلب العلم، فجّر مواهبه الفكرية في مصر، أصدر جريدة "العروة الوثقى"، توفي عام 1897 ودفن في مسقط رأسه.

(****) خليل اليازجي: هو خليل بن ناصيف بن عبد الله بن ناصيف بن حنبلاط اليازجي، أديب وشاعر لبناني ولد سنة 1856 وتوفي سنة 1889، ترك أعمالا أدبية متنوعة بين الشعر والنثر.

"مرآة الشرق" التي ضمت بين دفتيها مقالات في السياسة والاجتماع والفكر، داعيا من خلالها الأمة العربية إلى ضرورة الإمساك بزمام المبادرة من أجل الاستيقاظ وكان في كتاباته متشبثا بالتراث العربي يستلهم من الأفكار والرؤى مثال ذلك: روايته المعنونة "المروءة والوفاء" وهي رواية تاريخية استنبطها من سيرة حاتم الطائي التي اشتهر في العصر الجاهلي بالكرم.

**ب. مرحلة الانتقال:** إنّ ظهور الطباعة والترجمة وانتشار التعليم واحياء التراث العربي القديم، كلّها عوامل أدّت إلى تطور النثر، وظهور بعض الأجناس النثرية ومن أمثلة هذه المرحلة محمد عبده(*) وعبد الرحمان الكواكبي(**).

فالأوّل -محمد عبده- هو كما قلنا سالفا تلميذ جمال الدين الأفغاني، كتب مقالات في إصلاح الجانب التربوي والتعليمي بمفهومه الواسع، فقد نادى بقيام العلوم المدنية على الأساس الديني الذي يعطي المفاتيح الصحيحة للتعامل مع الله والكون والإنسان، والذي يجعل كلّ العلوم تلتقي عند النيّة السليمة في التحصيل، والآليات السليم في البحث والغايات

الربّانية ومن مقالاته "الكتابة والقلم" و"المعارف" و"الغاية في علم التوحيد" و"العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية" و"تأثير التعليم في الدين والعقيدة" وممّا قاله في التربية: "أمر التربية هو كلّ شيء وعليه بني كلّ شيء... وكلّ مفقود يفتقد بفقد العلم وكلّ موجود يوجد بوجود العلم... وأي إصلاح للشرق والشرقيين لا بدّ أن يستند إلى الدين حتّى يكون سهل القبول شديد الرسوخ عميق الجذور في نفوس النّاس... الناس في التعليم طبقات ثلاث: العامة والساسة والعلماء، ويجب تحديد كلّ ما يلزم بكلّ واحدة من هذه الطبقات الثلاث من التعليم كمّا ونوعا"(1).

وقد صيغت مقالات محمد عبده بأسلوب بليغ وبيان يعتمد على السّجع اللّطيف المقبول وليس المرذول والطبيعي وليس الصناعي، فجاء معجمه اللّغوي جامعا بين الألفاظ الأصيلة

(*) محمد عبده: هو الشيخ محمد عبده حسن خير الله، ولد بمصر من أم مصرية وأب كردي بقرية محلة النصر عام 1849 وفي عام 1866 التحق بالأزهر الشريف، نال شهادة العالمية عام 1877 عمل قاضيا بمحكمة بنها، آخر منصب هو مفتي الجمهورية عام 1899 توفي عام 1915.

(**) عبد الرحمان الكواكبي مصلح اجتماعي ولد بمصر عام 1849 كتب مقالات في جريدة الشهباء كلّفته السجن والتجريد من كل ممتلكاته فمارس أعمالا حرّة كالتجارة ثم القضاء والصحافة، حط عصا الترحال بمصر عام 1912 إلى أن توفي عام 1915، من مؤلفاته "أم القرى" وكتاب "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد".

(1) محمد عبده: الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة وآخرون، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، 1993، ص153.

والألفاظ الجديدة لكنّها كلّها فصحى يستطيع أن يتعامل معها المثقفون والقارئون للصحف من المتأدبين وأشباه المتأدبين، فهي لغة موجهة للصفوة أولًا ولمن دونهم ثانيا دون ابتذال، ومع ذلك فقد ضّم معجمه بعض الكلمات التركية أو الأجنبية.

أما الثاني -عبد الرحمان الكواكبي- فقد نهج في دعوته منهج العلم التجريبي لأو الفلسفة العملية فنظر في جميع العلل وقدّر جميع الوجوه، واعتمد في بحثه في العلل عن ثنائية النفي والإثبات وكان كما يقول العقّاد: "كان الكواكبي ابن عصره وجهد الإنسان من الثقافة أن يعيش في عصره لا يختلف في شأوه لا في علمه ولا عمله فليس الثقافة من حسنة ألزم لها من هذه الحسنة وفي مجال المعيشة ولا في مجال الدعوة إلى التجديد والإصلاح"[1]. ومن المبادئ الإسلامية والإنسانية الديمقراطية انفتح الكواكبي على روح الأمة الإسلامية التي رآها تتخبط في دياجير الجهل والتّخلف فوضع لنفسه منهجا في مؤلفاته سار على مهجه، فقد حلّل المراض الاجتماعية والسياسية تحليلا دقيقا وانتقد أساليب الظلم التي يستخدمها الحكام للتّسلط على المحكومين، يقول في كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد: "العلم فبسة من نور الله، وقد خلق الله النّور كشافا مبصرا ولّادا للحرارة والقوّة،

وجعل العلم مثله وضّاحا للخير فضّاحا للشر يولد في النّفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة، إنّ الاستبداد والعلم ضدّان متغالبان، فكلّ إدارة مستبدة تسعى جهدها في غطفاء نور العلم، وحصر الرّعية في حالك الجهل"[2].

إنّ دراسة الكواكبي لعلم الفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية، كان لها الأثر الواضح الجلي في كتاباته، من خلال لنتهاجه للكتابة العلمية المبنية على الاستقراء والبرهان المنطقي وكأنّه يريد أن يقنع القارئ بحجه فلا يترك لنفسه ريبة أبدا، فخطاب العقل عنده أولى من

خطاب العاطفة، خاصة وهو يدرك أنّ المرحلة الزمنية التي يعيشها جد حرجة فإمّا أن تكون الأمة أو لا تكون، يقول العقّاد: "أمّا أسلوبه في كتاب طبائع الاستبداد فهو أسلوب التقسيم واستيفاء الكلام على كلّ موضوع من الموضوعات أخذا وردًّا وشرحا واستدراكا وتقليبا للفكرة على وجوهها، كما تطورت في ذهن صاحبها وتقدمت بين بدايتها ونهاية التفكير فيها"[3].

ويبدو لي أن كتابات الكواكبي قد اتّسمت بالأصالة التي مردّها كثرة مطالعاته التي تعكس

---

[1] عباس العقّاد: الرحالة عبد الرحمان الكواكبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، مصر، دت، ص44.

[2] عبد الرحمان الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ط3، دار النفائس، بيروت، لبنان، 2116، ص65. [3] عباس محمود العقّاد: الرحالة عبد الرحمان الكواكبي، ص118.

الوجهة التي تبناها بفطرته واستعدّ إليها بتربيته خاصة حينما ألى على نفسه أن يحارب الاستبداد أينما كان وكيفما كان واعتقد أنّه قد تحقق له في كتاباته النثرية التي كرّست بالفعل مرحلة الانتقال من الكلاسيكية المبتذلة إلى تجديد الإيجابي، يضاف إلى هذين العلمين علم ثالث لا يقل عنهما أهمية وهو محمد المويلحي(*) في كتابه "حيث عيسى بن هشام" الذي صوّر فيه مصر، إذ يستغل شخصية عيسى بن هشام راوي مقامات بديع الزمان الهمذاني بأسلوب يشبه المقامات ومن خلال هذا الشكل الكلاسيكي القديم يناقش قضية اجتماعية معاصرة له كأخلاق الناس وطرق معاملاتهم وتقييمها بما يراه متلائما مع روح العصر.

**ج. مرحلة الازدهار:** تعدّ هذه المرحلة تتويجا للمرحاتين السابقتين وفيه تنوعت فنون النثر وانفتحت على كلّ الأجناس النثرية، وأدلت فيها بدلوها فجاء الإنتاج وفيرا، قيّما، مفيدا، مثقلا بروح العصر وقضاياه. وفي هذه المرحلة ظهرت مدرستان مميزتان في الكتابة النثرية وهما:

**أ. مدرسة المحافظين:** وضّمت هذه المدرسة أصحاب الثقافة العربية الصرفة، الذين لم يطلعوا على اللّغات الأخرى، ولم يقرأوا غير تراثهم العربي فجاءت لغتهم سليمة راقية تتّسم بجودة الصياغة، وكانت مواضيعهم على معالجة الأمراض التي جاءت مع الحضارة الغربية،

وأهم رواد هذه المدرسة نذكر: مصطفى صادق الرافعي، المنفلوطي، حسن زيات.

**ب. مدرسة المجدّدين:** وضمت هذه المدرسة أصحاب الثقافة الغربية الذين تمكنوا بطريقة أو بأخرى من الاطّلاع على الآداب الغربية وتراثها، فكان لهم أن تأثروا بها وانعكست بذلك في كتاباتهم التي اتّسمت بعمق الفكرة ودقتها وتحليلها واستقصائها كما عالجوا قضايا النقد الأدبي والتحليل النفسي والاجتماعي ومن أهم أعلامها: طه حسين، العقّاد، المازني، جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة، توفيق الحكيم. كلّ هؤلاء الأعلام ستكون لنا معهم وقفة وقراءة في المحاضرات القادمة، وكلّ حسب الجنس الأدبي الذي برع فيه.

المهم لقد جاء المجدّدون وخطوا بالنثر خطوات واسعة فجدّدوا في أغراضه ووسّعوا في موضوعاته فصارت تشمل الاجتماع والنقد والسياسة والتاريخ وغيرها، وساعدت ظروف المجتمع العربي من النّواحي السياسية والاجتماعية والفكرية على اتّساع النثر ومجالات التعبير به.

(*) محمد المويلحي: أديب وناقد وصحفي ولد بالقاهرة عام 1858 له صلة وثيقة بالخديوي إسماعيل، ساهم في تحرير جريدة "مصباح الشرق"، رحل إلى الأستانة ومكث مدة زمنية، عاد إلى مصر ونشر مقالا في جريدة "المقطّم"، توفي عام 1931.